الحس الاخروي
وفكر النورسي

إنّ ممّا يثير القلق في نفوس المهتمين بالقضايا الايمانية في هذا العصر الصعب، ويملأهم أسفاً وإشفاقاً: هو ذلك التضخم المخيف في «الحس الدنيوي» لدى الغالبية العظمى من المسلمين. وهيمنة هذا الحس وغلبته على مساحات واسعة من أحاسيس الوجدان الأخرى، حتى أصبح المحور الذي تدور حوله جملة اهتمامات المسلم اليوم، والنقطة المركزية التي يرسم حولها محيط مشاغله الذهنية ودوائر نشاطه الفكري والعقائدي، بينما وفي الضد من ذلك حاق الانحسار بالحس الاخروي في وجدانه. واعتوره الهزال، وأصابه الشحوب. وكاد يزول ويختفي، لولا عمق جذوره في النفس الانسانية، وفي فطرتها التي فطرها عليها الله سبحانه وتعالى. وقد سبب هذا الوضع الكثير من المصاعب والعقبات في وجوه المجددين الاسلاميين المحدثين. وشكل حاجزاً صعب النفاذ امام دعواتهم الايمانية التي مهما بلغت من قوة الحق فانها لا تجد الصدى المطلوب إلاّ في القلة القليلة من الناس.

وإذا ما سلمنا بأن صحة «الحس الاخروي» وعافيته وفاعليته في وجدان الانسان المسلم هو حجر الزاوية في صرح إيمانه وإسلامه، وان يقظة هذا الحس ورهافته شرط اساس من شروط السلوك الايماني الملتزم، ادركنا –

فداحة الخطب الذي يعاني منه المسلم اليوم، ولمسنا ابعاده المرعبة، والخطورة التي تهدد حياته الايمانية برمتها في الصميم.

وبديهي ان الايمان وحده – من غير حس اخروي يحرك عمل المسلم، ويحدد له النية والغاية – لا يجدي في بناء المسلم المثالي، ولا ينفع في الارتقاء بعقيدته وتزكية سلوكه، كما لا يكفي وحده كذلك في حال غياب هذا الحس – في انقاذه وخلاصه من العذاب الاخروي، وذلك لأن الاعمال التي هي مناط الثواب الاخروي المنقذ للانسان من العذاب لا تكتسب مرتبة الخلود والبقاء ثم الثواب الا بقدر ما يترك «الحس الاخروي» عليها من بصمات، ويمنحها – أثناء الممارسة– من نفسه ووجوده.

ومهما قيل في اسباب هذا التضخم والتورم في «الحس الدنيوي» لدى المسلمين اليوم، إلاّ ان واحداً من أهم الاسباب إنما هو ذلك الحرمان الشديد من متع الدنيا ومسراتها التي عانت منه الشعوب الاسلامية في فترات مظلمة وعصيبة خلال بعض القرون القريبة الماضية وحين انشقت عنها شرنقة التاريخ الصفيقة، خرجت هذه الشعوب من جدب القرون، وقحط الدهور، وفي روحها جوع شديد لكل ما يلتقيها من الحياة الدنيا، وفي «لا وعيها» نزوع ملحّ لتأكل من غثها وسمينها، وتكرع من عذبها وآسنها، وتخوض في حقها وباطلها، وتنال من خيرها وشرها، وكأنها تريد من هذا التسابق على «الحياة الدنيا» التعويض عن احساسها النفسي العميق بالحرمان وعن شعورها الحاد المفجع بمهانة الفقر والعوز. ومما زاد في إثارة شهوتها للحياة الدنيا، وفي تأجيج نيران رغباتها فيها، ما كانت تراه وتلمسه من قوة الشعوب الاوروبية واستعبادها للشعوب المستضعفه، وما ترفل به اوروبة القوية من نعيم في دنياها الثرية والجميلة.

ولقد مرّ «الغربيون» عموماً بتجربة تضخم «الحس الدنيوي» قبلنا، وأقبلوا على «الحياة الدنيا» بكل أبعادهم الفكرية والوجدانية، حتى اصبحت هذه الحياة مثار اهتمامهم، ومبلغ علمهم، وشغلهم الشاغل عن كل شئ، فنسوا «الآخرة»، واداروا لها ظهرهم، لا يلتفتون اليها، ولا يهمهم في قليل او كثير وجودها من عدمه. غير انهم انكبوا على «الحياة الدنيا» بعقل نافذ وفكر بصير تواق، فلم يكتفوا بالوقوف عند سطحها، ولم يمنعهم زبدها الطافي على السطح من الاصاخة لنداء الاعماق، وهتاف الاسرار، فحملهم روحهم المغامر نحو مجاهل الكون، وخفايا الحياة، وغوامض الطبيعة ورحلوا يوغلون عميقاً في كل شئ يلقاهم في طريق المعرفة. فكان جزاء جهدهم الكشف عن كثير من نواميس الحياة والكون والطبيعة، الامر الذي مكنهم من الامساك بزمام العلوم فمضوا جادين ينشؤون حضارة، ويقيمون مدنية، إن كانت مقطوعة الصلة باخلاقيات «الحس الاخروي» إلا ان لها اخلاقياتها النفعية الخاصة بها. بينما ظللنا – نحن المسلمين مع الاسف الشديد – مبهورين بالسطوح من دون الاعماق وبالقشور من دون اللباب، وبالسفوح من دون القمم، ولم يستطع حسنا الدنيوي – وهو ينوء بعقدة الحرمان اللاشعورية – ان يوصلنا الى اية معارف او علوم يمكن ان تضيف الى معارف الانسانية شيئاً يفخر به تاريخنا الحديث.

وعلى الرغم من اننا لم نكن في حاجة الى منْ يغرينا بالحياة الدنيا، ويدعوننا الى حبها وعشقها. لأننا كنا بالفعل قد غرقنا الى الاذقان في المسطحات من أمورها، والعادي جداً من شؤونها، والسهل البسيط من معادلاتها، والغريب المباشر من مسائلها وقضاياها، إلا ان كثيراً من مفكرينا

كانوا – ومنذ بدايات هذا القرن – قد كرسوا اقلامهم لعملية هذا الاغراء، وبالدعوة للألتحام بالدنيا الى حد الذوبان فيها، كما ان بعض المفكرين الاسلاميين وفي الحقبة التاريخية نفسها اضطلعوا بحماس بمهمة التقريب بين مذاهب الحضارة الغربية في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وبين مبادئ الاسلام، فلا يكادون يقعون على وجه شبه من قريب او بعيد بينها وبينه إلاّ اخذوا بتلابيبه وشرعوا في الكتابة عنه من اجل ان يسهلوا لنا عملية تقبل هذه الحضارة رغم توقف نبض الآخرة في عروقها منذ زمن بعيد. ومع ذلك لم نستطع ان نحقق لانفسنا شيئاً ذا بال من مثل ما حققه الغربيون لأنفسهم.

لأنّ الحضارات – حتى تلك التي تطغى عليها النزعة المادية الدنيوية – مهما قيل في تفسيرها، وطرح حول نشوئها من آراء، إنما هي في المحصلة النهائية نتاج نزوع الروح الانساني الى الخلود والبقاء والامتداد اللانهائي في الزمن. وهذا النزوع الممض والملح هو من وراء آداب الانسان وفلسفاته، وأفكاره ومعارفه وعلومه، وهو من وراء ما ينشئ من معابد وهياكل، ويقيم من عمارات ومدن، ومن وراء ما يخترعه من مخترعات ويكشفه من مكتشفات، غير انه لا يجد هذا الروح القلق التواق الى البقاء مبتغاه في كل هذه الاشياء كما يجدها في الدين الذي يمنح الانسان الامتداد والخلود والبقاء في زمن اخروى ابدي يستكمل فيه الاندغام الكامل والتوحد التام بالابد.

لقد اكد هذه الحقيقة مئة وعشرون الفاً من الانبياء والرسل – كما جاء في الحديث الشريف – بدءاً بآدم عليه السلام وانتهاء بمحمد ﷺ، واتوا عليها بمئات الادلة والبراهين فمنْ يكذب اجماع مئة واربعة وعشرين الفاً

على قضية هي من اخص خصائص شؤونهم، مثله كمثل منْ يكذب إجماع مئة واربعة وعشرين الفاً من أطباء الاختصاص على حقيقة طبية هي من اخص خصائص شؤونهم.

فما دام «الموت» آخذاً برقابنا يوماً ما شئنا او أبينا، وما دمنا نفزع من العدم، وترتعد فرائصنا من فقدان وجودنا، وتلاشي كياننا، فلا مناص لنا من اللجوء الى «الدين» ليمنحنا الطمأنينة والعزاء، ويأخذ بايدينا الى مفهومه الحق والجميل عن الموت.

فالموت – في مفهوم الدين– هو تلك النقطة من الحياة التي يصل اليها الانسان لسبب ما وينعدم عندها وإن الزمن الدنيوي عليه، فينفلت من جاذبيته، وينفك من قيده، ليلج فضاء الزمان الاخروي الابدي والسرمدي، مثله مثل الفضائي الذي لا بدله من المرور في نقطة «انعدام الوزن» قبل ان يتيسر له الانطلاق منفلتاً نحو الاعماق من امداء الكون المهول.

لقد كان هذا المفهوم عن الموت» حاضراً دائم الحصور في اذهان المسلمين الاوائل، وكانوا في اوج حسهم الاخروي يوم خرجوا على الدنيا بحضارتهم الزاهية التي اثرت الروح الانساني، وامدت شجرة الحضارة بالحياة والرواء قروناً عدة، ولم يجدوا انفسهم ابداً في حاجة خنق هذا الحس، وإيقاف نبضة من اجل ان يحسنوا التفكير، ويجيدوا الابداع، ويزيحوا الاستار عن اسرار الاشياء، بل كان الامر على العكس من ذلك تماماً، حيث غدا هذا الحس دافعاً ومحفزاً لرغبات المسلمين في الخلود عبر اعمالهم وأفكارهم ومعارفهم، مادامت ستكتسب شرف رضا الله وقبوله والثواب عليها في حياتهم الاخروية.

ولم يشر دين من الاديان الى مصير الانسان، ويلح في هذه الاشارة، ويكثر من ترادها ويُذكر دائماً وابداً بالآخرة وصيرورة الانسان اليها في خاتمة المطاف كما فعل الاسلام. فاكثر القرآن الكريم من ذكرها، وبرع في وصفها، وافتنّ في تصويرها، وجسّد ببلاغته الاعجازية اهوالها، وحذر من مخاطرها، وخوّف من نارها، واثار الروع في نفس الانسان من نشرها وحشرها.

فبلغ من روعته في وصف «جهنم» التي توعد بها الظالمين حداً يكاد الانسان يحسها وهي تزفر بين يديه وتشهق، ويسمعها وهي تتميز غيظاً أمام ناظريه، فيبادر بكفيه الى وجهه يتقي بهما لهبها، ويدفع عنه لفح زفيرها، ويمسح عن وجهه سخام دخانها، فيحس لسع ألسنتها على أنامله، فيملأه الرعب، وينصدع من الخوف كيانه، وتتحطم من شدة الهول ضلوعه، فتصرخ ذرات دمه رعباً، ويستغيث مخ عظامه جزعاً، وينوح روحه الماً وتوجعاً، حتى ليضع احدهم يده على فم الرسول ﷺ وهو يقرأ عليه آيات من «حٰم» ويقول: «ناشدتك الله والرحم هلاّ ما كففت!» من شدة ما داخله من الروع والخوف.

ولم يصوّر كتاب منزلٌ الجنة بظلالها وفيئها وشجرها وثمرها وطيرها وقصورها وحورها وولدانها، ونفح هوائها وطيب ترابها، كما فعل القرآن الكريم، فهو يحببها لنا، ويرسم لنا من لوحاتها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيزداد شوقنا اليها، وننجذب نحوها، ونكاد من فرط ما نراها قريبة منا نمدّ ايدينا فنقطف من ثمرها، ونتخطف من طيرها، ونبترد بمائها، ونعانق حورها، ونصافح ولدانها.

وكأنّ القرآن الكريم الموّار بهذه الصور الأخاذة من العالم الاخروي الذي سيفضي اليه الانسان بعد موته، مذخور لمثل هذا الزمان الصعب الذي

طغت فيه المادية الدنيوية الى حد انسحاق الانسان تحت ضغوط سلطانها الجبار، ورغم انها مازالت تعطي الجديد والطريف كل يوم تقريباً، إلا انها اعطت اعظم ما عندها، ولم تعد قادرة على غزو السأم الذي يعشعش في جوانية الانسان المعاصر ولا سيما الانسان الغربي. ولولا بعض اعمال البطولة الدرامية التي يؤديها الانسان في بعض مجالات علومه ومعارفه، ولاسيما مغامراته الكونية المثيرة بين وقت وآخر لظلّ قعيد الملل، لا يثار لعظيم، ولا يهتز لجليل.

فقد غزته العبثية القاتلة؛ وبدأ يرى كل شئ جميل وجليل مهدداً بأن يغدو عبث اطفال، ولهو صبيان مادامت حياته ستنتهي عند حدود «الدنيا» بضربة قادمة من ضربات الموت الذي – بسبب ضعف إيمانه او عدمه – يراه عدماً او إعداماً، ويرى القبر الذي سينزل فيه فوهه فاغرة تطل على عالم العدم المخيف. فما دام الامر كذلك فلماذا يحلم إذن ويأمل؟ وما جدوى احلامه وآماله؟

بل ما جدوى ما أنجزه من عظائم الامور، وحققه من جلائل الاعمال، إذا كان كل ذلك مصيره الزوال والعدم؟! ومن ثمة فما جدوى وجوده هو بالذات؟ وما جدوى الوجود بأسره الذي يبدو– من غير الحياة الآخرة – فارغاً من المعنىٰ والمغزىٰ؟!

إنّ الانسان المعاصر العبثي النزعة يتهاوى اليوم ويتآكل من داخل نفسه، ولم يعد لديه ذلك الايمان اليقيني المتماسك الصلب الذي يسنده ويسعفه في محنته، لقد فقد يقينيات الدين القادرة على وقايته من اعاصير الشك وعواصف المروق، فبات يرى نفسه علامة استفهام كبرى على هذه الارض يحار في الحصول على الجواب الشافي عليها.

وحتى أولئك المحسوبون على الصف الايماني، فان إيمانهم ليس من القوة بحيث يستطيع ان يعينهم على مجاوزة تحديات المادية المعاصرة.. إنها الفتنة العمياء، والداهية الدهياء التي يصبح فيها الانسان مؤمناً ويمسي كافراً، او يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، وهذا النوع من الايمان النصفي المتذبذب لا يجدي إطلاقاً في إنقاذ الانسان من الهلاك الدنيوي والأخروي معاً.

* * *

فالمنقذ للانسان من هلاك «اللاّ جدوى» ومن سموم «العبثية» القاتلة، إنما هو إيمان عميق لا حدود له، في اخروية لا حدود لها كذلك.

هذه الاخروية التي تمنح الوجود العام، ووجود الانسان بشكل خاص، معناه ومغزاه، وترسم له رسالته، وتعين مهمته في هذه الحياة، وتبعث الامل في الانسان اليائس المكروب. وتوجّه احاسيس وجدانه جميعاً في اتجاه مسؤوليته أمام الله تعالى، وأمام نفسه والعالم، وتفهمه الاّ شئ مما يؤديه يمضي الى بحر العدم، او يجري الى شاطئ الضياع والنسيان، لا شئ يذهب سدىً، او يتحول الى هباء، بل كل شئ محفوظ في ذاكرة الزمن، ومسجل في سجل الاخروية، يلقاه هناك عندما يعود اليها، ﴿**فمنْ يعملْ مثقال ذرة خيراً يره، ومَنْ يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾.

فالقرآن الكريم حين يؤكد على «الاخروية» ويكثر من ترددها في سوره وآياته، يفعل ذلك من أجل ان يشدّ الانسان المسلم اليها، فلا يعتوره الفتور، او تنتابه الغفلة، فيقع في «اللامبالاة» أو «العبثية» التي تفرغ الايمان من محتواه، وتخلفه جسماً بلا روح، وشكلاً بلا مضمون.

فلم تعد المسألة الأكثر إلحاحاً في هذا العصر كون الاسلام يحرر الانسان من استعباد المال والجاه والسلطان، وكونه قادراً بمضامينه الاقتصادية والاجتماعية على توفير المأكل والملبس والمسكن لأتباعه من غير ان يكلفهم مقابل ذلك شيئاً من حريتهم وكرامتهم، لقد غدت هذه القضايا من كثرة ماجئ عليها من البراهين والأدلة ومن شواهد التاريخ من بديهيات الاسلام التي لم تعد في حاجة الى مزيد دليل او برهان.

ليس هذا ما تحتاجه البشرية اليوم من الاسلام، فربما استطاع اي نظام ارضي ان يفعل ما يفعله الاسلام من توفير الكفاية والعدل لابنائه. ولكن الذي لا يستطيع ان يفعله اي نظام ارضي إنما هو إنقاذ الانسان من براثن العدم، وتخليصه من الرؤية العبثية للوجود، وما عدا «الدين» فإن أي نظام ارضي يعجز ان ينسب لنفسه هذه المهمة العظيمة والجليلة.

فالقضية الكبرى التي تهون قبلها وبعدها كل قضية إنما هي حلّ لغز الموت، وما سيؤول اليه الانسان بعده، فالموت وما بعده هو القضية الاساسية الملحة التي ينبغي ان تحتل الاولوية من اهتمامات الانسان ومن تفكيره، ومن اهتمام المعنيين بالانسان وبمصيره، واي إغفال لهذه المسألة او تجاهلها إنما هو غش للانسان واستهانة به وبمآله ومصيره، وخيانة عظمى لا ينبغي للمخلصين من المفكرين ان يقترفوها بحق الانسان والانسانية.

لقد تحدى «الدين» الفلسفة المادية ومذاهبها، وطالبها بتفسير واضح لما يحس به الانسان من شوق للخلود، ورغبة في البقاء والأبد، لان هواجس الانسان وأشواقه – السامية منها والهابطة – لا يمكن ان تكون لشئ غير موجود او متوهم، فنحن نحس برغبتنا في الطعام لان الطعام موجود فعلاً، ولو لم يكن موجوداً لما احسسنا هذا الاحساس قط. ونحن نعطش

ونشتاق الى الماء لان الماء موجود فعلاً، ولو لم يكن موجوداً لما احسسنا مثل هذا الاحساس ابداً، فالانسان لا يرغب في شئ غير موجود، اي لا يرغب في العدم ولا يشتاق إليه، فما دام يشتاق الى الخلود، ويرغب فيه، ويتمناه، فالخلود إذن موجود. اي ان «الآخرة» موجودة، وربّ الآخرة موجود ايضاً.

إن عجز «المادية» عن الاجابة على هذه التساؤلات كان لا بد له ان يحدث في نفس الانسان – في كل مكان من الارض – تصدعات وشروخاً تركت فيها فجوات سهلت للتفجرات الايمانية المكبوتة ان تجد طريقها الى السطح، وهي وإنْ اخذت مسارات عديدة، وتشكلت بأشكال مختلفة تبدو وكأنها بعيدة عن اي هاجس إيماني إلاّ انها في حقيقة الامر تفجرات إيمانية ضلّت سبيل التعبير عنها، والإفصاح عن مضمونها وحقيقتها، شأنها في ذلك شأن الطفل يبكي ويصخب ويثور لانه عاجز عن الافصاح عما يريد. وهذه التفجرات الايمانية، وإن كانت لم تبلغ ذروتها بعد، فهي ستبلغها عاجلاً او آجلاً، وسيحسن الانسان التعبير عنها والإبانة عن مضمونها، بشكل عفوي ومباشر في العقود القريبة القادمة من السنين إن شاء الله كما تنبئ عن ذلك حوادث الدول، ووقائع الشعو في هذه الايام.

فالانسان إذن والمسلم بشكل خاص، في حاجة اليوم الى المفكر الديني الذي يستطيع ان يخلصه من بؤس «حسه الاخروي» ومن جفاف عوده، ويبس عروقه، وان يتوجه بكل طاقاته الى اساسيات الايمان في الانسان، فيحرك حسه الاخروي، ويعيد إليه الخضرة والرواء، ويعمل على تثقيفه وتهذيبه مما علق به من أدران الدنيا، ومدّه بالمجسّات الحسّاسة التي تجعله

مرهفاً شديد الارهاف، حاساً شديد الحساسية، يهتز كعقرب البوصلة مؤشراً اي انحراف في النية والقصد يحبط العمل وينأى به عن القبول في دار الخلود، فيجهد المسلم عند ذلك في تخليص اعماله، وتنقية سلوكه من اية شوائب دنيوية، فتأتي خالصة مخلّصة لتصب في بحر الزمن الاخروي حيث يلتقيها على شاطئيه في انتظاره حين يتجاوز به الموت زمانه الدنيوي القصي.

وقد استطاع «النورسي» رحمه الله تعالى ان يشخص أزمة المسلمين منذ البدايات الاولى لهذا القرن، وعزاها الى فقدان القابلية الحضارية فيهم على التواصل ومواكبة الزمن، بسبب تعطل المحرك لهذه القابلية بخمود لهب التوق للانعتاق من أسر «المحدود» والامتداد بافكارهم واعمالهم في «اللاّ محدود» وبهمود حماسهم في كسر قيد الزمن الدنيوي عن افكارهم واعمالهم بحيث تكتسب شرف الامتداد في الزمان الاخروي الذي تصب في حافظته جميع الاعمال والازمان، ولم يعد الخلود هاجسهم الاول ومحركهم الدائم في العمل والفكر، فلم يبدعوا مثلما كان يبدع أوائلهم، ولم يستطيعوا ان يضيفوا في الفكر او العمل شيئاً مهماً يمكن ان يسجل باسمهم خلال هذا القرن.

فالسقوط في هاوية «المحدود الدنيوي» وضيقه، والوقوع في أسره، منع بصيرتهم من رؤية «غير العادي» في «العادي» المكرور نفسه، ومن رؤية «غير المألوف» في «المألوف» المكرور نفسه، وهل مفتاح العلوم والمعارف إلا هذه النظرة الثاقبة في غير العادي من خلال العادي، وفي غير المألوف من خلال المألوف..؟!.

يقول النورسي في مثنويه:

« اعلم ! ان من اَعمّ اسباب ضلالة فكر البشر : ظنُّ المألوف معلوماً، مع ان الألفة تتضمّن الجهلَ المركب، فبحُكمِ الألفة لا يتأملون في العادّيات المستمرة مع انها كلها خوارق معجزات القدرة، وما يُمعنون النظر الا في ما فوق العاديات من نوع التجليات السيالة، كمن لا ينظر من مجموع البحر – مع ما في بطنه من الحيوانات – الا الى تموّجاته بالهواء وتلألئه بشعاعات الشمس. فيستدل بهذين الحالتين فقط على عظمة مالك البحر وصانعه جلّ جلاله ».

فالنظرة الايمانية التي ترى العالم من صنع خالق مقتدر لا بد لها أن تبحث عن سر الخلق فيما يحيط بها من اشياء، لانها ترى كل شئ جديداً وكأنه قد خرج للتو من يد القدرة، فهو جدير بالنظر والتأمل والتفكر مهما بدا عادياً ومألوفاً، فكل شئ يولد جديداً جدة اليوم الجديد، وهو جدير ان يصبح موضع نظر المسلم وتأمله، وكشف سر الخالق فيه.

غير ان المسلم وإن كان ما يزال محتفظاً بايمانه إلا انه قد فقد حماسه في اكتشاف سر الايمان وآثاره فيما يحيط به من اشياء، وفيما تنطوي عليه الارض من اسرار، ويمور به الكون من مجاهيل، وبفقدانه لهذا الحماس فقد بذرة التحضر، واضطر ان يستظل بسقف حضارات غريبة عن تكوينه العقلي والوجداني، الأمر الذي جعله يعجز عن الايغال في روحها، والنفاذ الى سرها، فاكتفى منها بالهامش من فكرها وعلمها ومعرفتها.

لقد جرّد « النورسي » قلمه للجهاد على جبهتين:

فاستطاع على واحدة من هاتين الجبهتين ان يدحض مفاهيم غريبة عن تكوين المسلم العقلي والوجداني تسربت الى ذهنه عن شعور منه او عن غير شعور، وهي بالتأكيد مفاهيم وثنية تفسد توحيده، او تجرده منه،

كالذين نسبوا للطبيعة – كما يفعل عموم الاوربيين – صفات الخلق والايجاد، وهي صفات من اخص خصائص الالوهية والربوبية.

وعلى الجبهة الثانية حاول ان يؤجج حماس المسلم الهامد، ويثير رغبته في الكشف والتنقيب، وان يبذر في نفسه بذرة التحضر، فلفت إنتباهه الى ان ما يبدو مألوفاً في النظرة الأولى إنما ينطوي على سر الخلق، وعجيبة الايجاد، وان كل شئ في هذا الوجود من حبة التراب على الارض الى غبار السدم والمجرّات في السماء، يصلح ان يكون موضع دراسة وتأمل، وانّ ما من شئ إلا وتتظاهر فيه اسرار إلهية عظيمة، وصفات ربوبية مطلقة، كالعلم والحكمة والقدرة، وان اسماء الله الحسنى هي التي تحرك الوجود، وتمنح الحياة، وترسم للطبيعة قوانينها، وتهب للكون نواميسه.

ولما كان علم المسلم وحكمته وقدرته نسبية بالقياس الى علم الله تعالى وحكمته وقدرته المطلقة لزمه – اي المسلم – إذا اراد ان يبدع ويبتكر ان يتواصل بشوق وحماس مع المطلق الالهي الفاعل في الموجودات، وان يفتح عقله لفهم نواميسه التي تتخلق الاشياء بموجبها، ويهئ ذهنه لكي يتقد بشرارته ويضئ بنوره، فتتفجر لديه طاقات التفوق والابداع نابعةً من تلافيف فكره، ونسيج وجدانه، فيتعايش معها كجزء مهم من كيانه، دون ان ينتابه ذلك الشعور بالغربة عنها كما هو حاله مع افكار الغرب ومفاهيمه.

إنّ القرآن الكريم يشدّ المسلم بمطلق علم الله وحكمته وقدرته، ويحاور فكره ووجدانه ملفتاً نظره الى نفسه التي بين جنبيه وما تنطوي عليه من كونٍ نفسيٍ يضاهي بعظمته عظمة الكون خارج النفس، ثم يشير الى الوجود المنبثق من العدم بعلم الله وحكمته وقدرته، ويحثه على ان ينفذ بنظره فيه بحثاً عن معالم هذا العلم، وآثار تلك الحكمة والقدرة،

فالموجودات والكائنات إنما هي كلمات الله المجسمة، وآياته الشاخصة في كتاب الوجود، ما يكاد يلمسها وينكت فيها حتى تنبثق منها ينابيع الايمان، وتنبجس منها الدلالات على وجود الله تعالى.

وقد ذكر «النورسي» هذه الحقيقة واسهب في توكيدها، وضرب عليها الامثال، وعرض نماذج من اكثر الاشياء أُلفة، وبيّن ما تنطوي عليه من عجائب الخلق وسر التكوين.

فما من شئ لامسه قلمه وحفر فيه إلا وفجّر من خلاله معاني الايمان والاسلام، وما من شئ وقع تحت سنّ قلمه إلاّ وتدفق منه سرّ الايمان، وحقيقة الايقان كعصا موسىٰ إينما ضرب بها موسى عليه السلام – حتى في اشد الصخور صلابةً – تفجر الماء وانبجست منه العيون. يقول النورسي في مثنويه:

«اعلم! ان الفرق بين طريقي في «قطرة» المستفادة من القرآن؛ وطريق اهل النظر والفلاسفة، هو اني احفر اينما كنتُ، فيخرجِ الماءُ، وهم تشبثوا بوضعِ ميازيب وانابيبِ لمجئ الماء من طرفِ العالَم ويسلسلونَ سلاسل وسلالِم الى مافوق العرش لجلب ماء الحياةَ، فيلزم عليهم بسبب قبول السبب وضع ملايين من حفظة البراهين في تلك الطريق الطويلة لحفظها من تخريب شياطين الاوهام. واما ما علّمنا القرآنُ فما هو الاّ ان أُعطينا مثلَ «عصا موسى» اينما كنتُ – ولو على الصخرة – اضربُ عصاي فينفجر ماءُ الحياة، ولا احتاج الى السفر الطويل الى خارج العالم، وتعهّد الانابيب الطويلة من الانثلام والانكسار»..

تغمد الله النورسي برحمته واجزل له الثواب، وغفر لنا جميعاً واعاننا على خدمة دينه، والحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على محمدخاتم الانبياء والمرسلين.